المبحث الثالث

أسلوب عيسى عليه السلام في دعوته

بعد ذكر القرآن الكريم لحادثة حديث عيسى ابن مريم في مهده، وكيف أنَّ هذا الحدث أنقذ شرف أمِّه مريم ابنة عمران من تهمة قومها لها بالسُّوءِ والفحشاء، زوراً وبهتاناً. أعرض عن ذكر أي شيءٍ عن نشأة عيسى منذ تلك الحادثة إلى أن أعلن رسالته ودعوتَه إلى الله الَّتي كانت خاصة لبني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران: ٤٩]. وقال تعالى بعد أن حكم بكفر القائلين: إنَّ الله هو المسيح: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

فعيسى ابن مريم عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل، جعل الله مولده من غير أبٍ، وحديثه في المهد آيةً ومثالاً على كمال

قدرته في الإبداع، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ربّ الجميع، وحذَّرهم من الشِّرك بالله؛ فإنَّ الله قد حرَّم على المشرك الجنَّة الَّتي هي دار قرارٍ ومعينٍ، وجعل مأواه النَّار يخلد فيها أبد الآبدين، إن مات على ذلك، وليس له ما ينصره من دون الله.

وقد حدَّد الله مهمَّته في الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وقد كان عيسى من جُملة أنبياء سبقوه في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

فهو قد امتاز عن الَّذين سبقوه بأنْ كان له كتاب أنزله الله إليه سوى التَّوراة الَّتي كان يحكم بها النَّبيون من قبله من موسى إلى يحيى عليهم السَّلام. غير أنَّ الإنجيل كتاب عيسى ابن مريم ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [آل عمران: ٥٠] أي: مطابقاً لأكثر ما جاء فيها من أحكامٍ، وشرائع، وهو لا يخالفها، ولا يُعدّ لها ناسخاً في جملتها، إنَّما هو مبيِّنٌ لبعض ما اختلف فيه

بنو إسرائيل من أحكام وشرائع جاءت في التَّوراة، فحرَّفها اليهود: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

فالَّذي حُرِّم على بني إسرائيل على لسان موسى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

فالتَّحريم كان بسبب اعتدائهم على أنبيائهم، وإلاَّ فقد كان كلُّ الطَّعام حلًّا لهم إلا ماحرَّم إسرائيل عليه السلام على نفسه، قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

والَّذي حرمه يعقوب على نفسه -كما تقول أكثر كتب التَّفاسير- هو لحوم الإبل، وقيل: كل لحمةٍ بينها عروقٌ أو فيها.

معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام:

لقد عُرِفَ عن اليهود أنَّهم قوم ماديون لا يؤمنون إلاَّ بما هو محسوسٌ، ويكفرون بما سوى ذلك، فتراهم يعملون على قتل كلِّ نبيٍّ جاءهم بما لا تهوى أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[المائدة:٧٠].

وقد بعث الله عيسى ابن مريم رسولاً إليهم حلقة في سلسلة أنبياء سبقوه يدعونهم إلى الخير، ويعملون على إصلاح فساد قلوبهم. ولقد تصدَّى اليهود لابن مريم عليه السلام منذ اللَّحظة الأولى من رؤيته وليداً بين ذراعي أمِّه الَّتي اتَّهموها بالفاحشة، ولَّما أعلن رسالته، ودعاهم إلى عبادة الله وحده وترك ماسوى ذلك كذَّبوه، واعتبروه ساحراً، وأعملوا حيلتهم لقتله.

ولَّما كان الأمر كذلك، فقد كان لا بدَّ لعيسى ابن مريم من معجزات حسِّيةٍ تدعم قولَه، وتبطل ما يدَّعونه ضدَّه من كذبٍ وافتراءٍ. ولقد أجرى الله جلَّ وعلا على يده من المعجزات الحسِّية الشَّيء الكثير، الذي فاق في عدده معجزات بعض الأنبياء من قبله. قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٨-٥١].

فهذه آياتٌ بيِّناتٌ فصَّلت معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام، برهان صدقٍ على ما يقول؛ لتكون حجَّةً على المكذِّبين وزيادة طمأنينة للمتَّبعين.

أولى تلك المعجزات تتمثَّل في خلق الله تعالى لعيسى نفسه، حيث ولد من أنثى من دون ذكرٍ، وأنطقه الله وهو لم يزل صبيّاً في مهده دفاعاً عن شرف أمِّه. هاتان المعجزتان لم يجادل فيهما بنو إسرائيل كثيراً، ربما لأنَّهم لم يدركوا حينذاك ما تنطويان عليه، وماسيترتَّب عليهما في المستقبل.

ثمَّ تأتي معجزة نفخ الرُّوح، فقد أمره الله أن يصوِّر من الطِّين كهيئة الطَّير وشكله، ثمَّ ينفخ في تلك الهيئة نفخاً عاديّاً، لا أثر

لــه، ولا قدرة على الإحياء، فيرســل الله في تلــك اللَّحظة من روحه على شكل الطَّير، فتسري فيه، فيكون طيراً بإذن الله يطير بجناحيه أمام الشَّــاهدين. وإنَّما قام عيسى ابن مريم عليه السلام بعملية النَّفخ في الهيئة لتكتمل بذلك صورة التَّحدِّي في إطار المعجزة.

ثمَّ أقــدره الله على إبراء الكَمَه والبَرَص، وهما من الأدواء المعضِلة الَّتي لا يكاد يوجد لها علاجٌ حتَّى اليوم على الرغم من تقدُّم الطِّــب، فالأكمه هو الَّذي يولد ولا عين له مبصرة أصلاً، والأبرص هو الَّذي ماتت خلايا جلده فتغيَّر لونه إلى لون أبيض باهقٍ لا يستسيغه النَّظر، فكان عيسى ابن مريم يبرئ هؤلاء بإذن ربِّه إبراءً يعود بعده المصاب ســليماً معافى، كأن لم يُصَبْ من قَبْلُ، فهذه المعجزة قائمة إلى اليوم لم يقوَ أحدٌ على تقليدها أو اكتشاف سرِّ عناصرها.

ومن معجزات عيســى ابن مريم عليه السلام الكبــرى الَّتي أجراها الله على يديه تدليلًا على صِدق ما جاء به عن ربِّه، معجزة إحياء الموتى بــإذن الله. ولم يَرِدْ في القرآن ذكرٌ عَن كيفيتها وقد فاقت كلَّ المعجزات الَّتي جاء بها المسيح عليه السلام لكون صِفة الإِحْياء صِفة من صفات الله ملازمةً له لا يقوى عليها أحدٌ ســواه. إلّا من شاء

من خلقه، ولقد ضلَّ كثيرٌ من بني إسرائيل بسببها بدل أن يهتدوا؛ لأنَّهم شاهدوها نتيجةً حسِّيةً ملموسةً فبهرتهم ولم يحاولوا ربطها بما جاءهم به نبيُّهم عيسى عليه السلام من معجزات وأدلةٍ وبراهين تدلُّ على مطلق قدرة الله، ووحدانيته، فأصبحوا فريقين:

مكذِّبًا ومتَّهِمًا له بالسِّحر والشَّعوذة. والفريق الثَّاني: اعتبره إلهًا من دون الله فصرف إليه بعض أنواع العبادة الّتي لا تكون إلا لله وحده. فَضَلَّ الفريقان.

ومن معجزات المسيح عليه السلام أيضًا قدرته بإذن الله على الإنباء بالمغيَّبات من الأمور الَّتي لا يعلمها إلا من شاهدها، كإنباء قومه بما يأكلون في معيشتهم، وبما كانوا يدَّخرونه من مؤونة في بيوتهم.

وقد أخبر بأمر مغيَّب لم يقع إلَّا بعد مئات السِّنين من رفعه عليه السلام وهو أنَّه قد بشَّر بني إسرائيل برسولٍ يأتي من بعده اسمه أحمد. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف: ٦] ولا خلاف أنَّ المقصود به رسولنا ونبيِّنا محمَّد بن عبد الله ﷺ نبيُّ الإسلام وخاتم الأنبياء. فالأصل في الاسمين الحمد؛ وهما

من أســماء الرَّسول ﷺ، فأحمد روعي فيه أنَّه كثير المحامد لله، ومحمَّد كثير الصِّفات الحميدة الَّتي يَحمده عليها النَّاس.

الحواريون:

البطانة[1] أمــرٌ حيوي وحاجةٌ ملحَّة لكلِّ عظيمٍ له رســالةٌ في الحياة يســعى لتحقيق أهدافها، وبلوغ ذروتها في الإحاطة والشُّــمول، واختيار البطانــة أمرٌ ليس بالسَّــهل، ولا بالهيِّن، خاصةً لمن يدعــو لأمرٍ مهمٍّ يقتلع جــذور معتقداتٍ ومبادئ ليغرس بدلها غيرها في نفوس البشر، كأمر الدَّعوة إلى التَّوحيد فــي مجتمعٍ مشــركٍ أضلَّه هواه عن رؤية الحقِّ. وعيســى ابن مريم عليه السلام من أولئك القلَّة في الدُّنيا، المصْطَفَيْن أرسله الله إلى بني إســرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك ما سواه من المعتقدات واتِّباع الحاخامات، فــكان لا بدَّ أن تكون له بِطانة من قومــه يؤمنون بما جاء به ويُصدِّقُونــه، ويُعينُونه على بلوغ الغاية في نفوس النَّاس والعمل على نشر رسالته بين أكبر عددٍ من بني إسرائيل، وفي أوسع دائرةٍ من المكان.

---

(١) قال في اللِّسان مادة (بطن): البطانة خلاف الظِّهارة، وبطانة الرَّجل خاصَّته. وجاء في صحيح البخاري، كتاب القدر: عن النَّبي ﷺ قال: «**ما اســتخلف خليفة إلا له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحثُّه عليه، وبطانة تأمره بالشَّر وتحضُّه عليه، والمعصوم من عصمه الله**».